مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 17 عدد: خاص جانفي 2022
العنوان: التعايش بين الشعوب والحوار بين الأديان... ص.ص 1049- 1076.

التعايش بين الشعوب والحوار بين الأديان
- حتمية الماضي وضرورة الحاضر-

بكاري عبد القادر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة ابن خلدون، تيارت.
bekk1960@yahoo.Fr

تاريخ الإرسال: 2019/07/01؛ تاريخ القبول: 2021/05/20

Coexistence between peoples and civilizations "memories of the past and ambition of the present"

Abstract:

The subject of dialogue between the religions, and the coexistence between peoples is occupying a wide space in public political relations sphere today, and it's without a double one of where there's more interest towards it from institutions and associations. More conferences and meeting are organized to achieve it, and political visits are help by politicians and religious persons trying to apply it as the most appropriate approach to achieve interaction and rapprochement between nations, and the ideal way to avoid any danger of wars conflicts .

The coexistence and dialogue between peoples must be based on solid foundations, and great values built for the benefit of humans. There is no law which regulates human life like the divine laws, and this what all the heavenly religious have brought. They all call for coexistence and dialogue; and aim to reach the right and justice among all the humans there fore, it's necessary to affirm that people have no choice to limit the fight and principles of dialogue to get rid of infighting and tension.

In this article we attempt to draw attention to the importance and necessity of coexistence and dialogue, and the need for renewal in the relations between the various groups of people, the spectrum and the objectives, through some

historical and realistic visions. Our study aims also to clarify many historical stations which characterized the relations of Islamic people's, especially Christianity and Judaism, trying to identity some aspects of this issue, in relation to the need for humanity to reflect the system of human values, and faith in the cultural diversity of intellectual cultural field, time and actions, and the usefulness of transition from the historical subject to reality .

Keywords : dialogue ; coexistence ; religions ; peoples ; laws.

الملخص:

يحتل موضوع الحوار بين الأديان والتعايش بين الشعوب حيزا واسعا في مجال السياسات الدولية العامة اليوم، وهو ولا ريب من أهم القضايا التي ينبغي ملاحظتها في وقتنا الراهن، حيث يتزايد الاهتمام به من قبل المؤسسات والجمعيات، وتعقد له المؤتمرات واللقاءات، وتقام له الزيارات الرسمية خاصة من قبل رجالات السياسة والدين، محاولة لتكريسه بوصفه المنهج الأنسب للتفاعل والتقارب بين الأمم، والطريقة المثلى لإبعاد شبح الحروب والصراعات

إن التعايش والحوار بين بني البشر يجب أن يقوم على أسس راسخة وقيم عظيمة تبنى لمصلحة البشر، ولا يوجد قانون ينظم حياة البشر مثل قانون السماء، وهو ما جاءت به الأديان السماوية كلها، والتي تحض على التعايش والحوار، وتهدف إلى إحقاق الحق والحكم بالعدل، ولذلك لا بد من التأكيد على أنه لم يبقى أمام الشعوب خيار للحد من ثقافة الاحتراب والعداء المتفشية في كل مكان، سوى قيم التسامح ومبادئ الحوار لنزع فتيل الاقتتال والتوتر، من ثَمَ نروم من خلال هذا المقال محاولة لإثارة الانتباه إلى أهمية وضرورة التعايش والحوار، وما يلزمه من تجدد في شريان العلاقات بين المجموعات البشرية المختلفة الأطياف والأهداف، من خلال بعض الرؤى التاريخية والواقعية، كما نروم رصد العديد من المحطات التاريخية التي ميزت علاقات الشعوب الإسلامية بغيرها خاصة المسيحية واليهودية، محاولين الوقوف على بعض الجوانب لهذه المسألة، في

علاقة بضرورة حاجة البشرية إلى تجسيد منظومة للقيم الإنسانية، والإيمان بالتنوع الحضاري الثقافي الفكري مجالا وزمنا وفعلا، وفائدة الانتقال من الموضوع التاريخي إلى الواقع الحدثي.

الكلمات المفتاحية: الحوار؛ التعايش؛ الأديان؛ البشرية؛ القوانين.

1-مقدمة:

هناك بعض القضايا والحقائق كانت تبدوا مما لا تقبل الطرح والمناقشة بالأمس القريب، فإذا بها اليوم تطغى على الساحة الدولية، بل وأصبحت لسان حال بعض الدول والحكومات والجمعيات، ألا وهي مسألة التعايش بين الثقافات والحوار بين الأديان(المسيحية-الإسلامية)، والتي أصبحت من بين القضايا الأكثر تداولا، وأكثرها حدة، وازداد الاهتمام بها، حتى باتت سمة مميزة لهذا العصر. فمراكز الحوار في العالم تتعدد، واهتمام المنظمات الدولية به يتسع، وتزداد اللقاءات والمؤتمرات، وزيارات رجالات الدين، والتي كان آخرها زيارة بابا الفاتيكان فرنسيس(خورخي ماريو بيرجوليو) إلى كل من دولة الإمارات العربية المتحدة(أبو ظبي) أيام3-5 من شهر فبراير2019، والى المغرب الأقصى يومي 30 و31 مارس من نفس السنة، فضلا عن الأبحاث والدراسات التي تتناوله، والتي تملأ صفحات الكتب والمجلات والصحف كل ذلك، والعالم يشهد اليوم تحولات أساسية كبيرة وكثيرة في جميع المجالات والميادين، هذه التحولات أسهمت وانعكست بشكل حقيقي على الحقل المعرفي الفكري الثقافي، بتأسيس رؤى ومرتكزات حضارية راهنت عليها الطبقة المثقفة والمتعلمة آملة في إشكالية التعايش والحوار. فمنذ فجر النهضة ومروراً بأزمنة الحداثة (Modernism) وما نتج عنها من انقسام فكري وصراع معرفي بين التيارات المحافظة والحرة، وبين المعسكرات الليبيرالية والأصولية، ثم ما بعد الحداثة (Post-modernism) وسعيها لتكريس ثقافة الغموض والتجاوز، وصولا إلى محطات العولمة(Globalisation) وإشكاليات الهوية والتبعية، لتقف وجه لوجه من أجل الحوار الثقافي والتعايش الديني بين الشعوب والأمم.

لكن يبدو أن هذه الرؤى ليست وليدة اليوم، بل هي قديمة قدم الإنسان والأديان على وجه الأرض، حيث أكد الفكر الفلسفي التاريخي منذ العهد اليوناني(طاليس،سقراط،أرسطو...)ومرورا بالعهد

الإسلامي(الكِندي، الفارابي، ابن رشد...) على أن التواصل الإنساني هو المنبع الحقيقي للوجود، حقيقة الوجود مع الآخر، ولا أوجد إلا معه، وان الاتصال البشري لا يقتصر على اتصال فكر بفكر، بل إنه اتصال وجود بوجود، وكيان بكيان، إنه التعاون الذي يحطم حلقة اللامبالاة...ولا يتحقق اطمئنان الكائن ويقينه إلا بهذا التواصل الذي يحقق إنسانية الإنسان(المجيدلي، عبد الله،2015:42)

وانطلاقا من الدور الكبير الذي يلعبه الدين على مستوى العلاقات الإنسانية، والسمو الأخلاقي الذي ينشره لدى أتباعه، وانطلاقا أيضا من حاجة البشرية جمعاء إلى تأكيد منظومة القيم الإنسانية، والإيمان بالتنوع الحضاري والثقافي، والتعايش المشترك بين البشر جميعا، والذي هو من صميم رسالة الأديان جميعا، فإن التعايش والحوار حول ما يجمع أصحاب الأديان من قيم إنسانية مشتركة هو أفضل السبل لتفهم كل جانب للآخر.

وعليه، ومن خلال هذه الدراسة نحاول رصد العديد من المحطات التاريخية التي ميزت علاقات الشعوب الإسلامية بالشعوب الأخرى(المسيحية واليهودية خصوصا)، محاولين الوقوف على بعض الجوانب لهذه المسألة ومنها: موقف الديانتين الإسلامية والمسيحية من قضية التعايش والحوار، وكيفية ترسيخ وتطوير الحوار بين الأديان، وتوسيع قاعدته بين المجتمعات في ظل الاختلافات الكثيرة"منافسات الماضي ومشاحنات الحاضر"، وما هي مبادئ التعايش والحوار التي يمكن أن تحظى بموافقة الطرفان(المسلمون والمسيحيون) الراغبة في ذلك؟ وهل أن التعايش والحوار بين الأديان هو القضية المحورية والمركزية التي تبعد خطر الصدام بين الشعوب، وتحل السلام والأمن الدوليين في ظل المشاريع التشويهية للعلاقات المسيحية الإسلامية التي تمارسها دولا وحكومات وجمعيات رسمية وغير رسمية على غرار المؤسسة الصهيونية الأمريكية التي تدعى"بيت الحرية".

2-مفهوم التعايش والحوار:

تعايشوا:عاشوا على الألفة والمودّة، وعايشه: عاش معه، والعيش معناه الحياة، وممارسة الإنسان لأنشطة بمختلف مجالاتها وظروفها وأحوالها، وفق قيم ومفاهيم ومعتقدات التي تحكم سلوكه وتصرفاته في مجتمعه وبيئته(عبد العاطي، شعبان،2004:639). إذن المدلول اللغوي للكلمة واضح، فهو العيش على هذه الأرض من بني آدم كافة، وقد جاء هذا المعنى في كتاب الله تعالى قوله" نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الْدُنْيَا"(الزخرف، 31).

إن التعايش بين الشعوب(مع الآخرين) يراد به أن يتعايش المسلمون مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وخاصة الديانة المسيحية والسامية بقواسم فكرية وعقائدية وثقافية مشتركة .

أما مفهوم الحوار: فهو لفظ اشتق في اللغة من مادة(ح و ر) والتي تحمل من الدلالات الكثير، وقد ذكر علماء اللغة أن له معاني متعددة تبعا لتفعيلاتها الصرفية. فلغة: تراجع الكلام، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة(ابن منظور، محمد، 1955: 233). وجاء في صحاح الجوهري ما يلي:"المحاورة المجاوبة"، والتحاور: التجاوب. ويقال:كلمته فما أجار إلي جوابا، وما رجع إلي حويرا، ولا حويرة، ولا محورة، ولا حوارا(بفتح الحاء وكسرها)، أي ما رَدَّ جوابا (الجوهري، إسماعيل، 1990: 351). وورد في تاج العروس: "الحوير كأمير، والحوار بفتح وبكسر...كلمته فما رجع إلي حوارا، وإنه لضعيف الحوار، أي المحورة" (الزبيدي، مرتضى، 1994: 123).

أما اصطلاحا فهو نوع من الحديث بين شخصين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصّومة والتعصب"(ديماس، محمد راشد، 1999: 11) فالتعايش والحوار هما مصطلحات تم استخدامهما بشكل مترادف في سياقات عدة، منها أن يلتقي أتباع الديانات السماوية المختلفة من أجل أن يسود العالم الأمن والسلام، وان يتفق الطرفان

على تنظيم وسائل الحياة فيما بينهما وفق قاعدة يحدّدانها تقوم على التوافق حول المصالح(التويجري، عبد العزيز، 2015: 16).

يذكر حاييم الزعفراني أن حوار الأديان والثقافات يعود إلى أدب الحكمة التوراتي الذي يرتد إلى ماض سحيق، بدأ اللقاء بين اليهودية والهلينية(توينبي،أ،2003: 191) في القرن الرابع قبل الميلاد، واللافت للانتباه أن تأثر اليهود بمناهج الفكر اليوناني تمّ عبر وساطة الثقافة العربية، وأن هَلْينَة الفكر اليهودي تحققت عبر الإسلام، لاسيما بعد تبنيهم اللغة العربية واستعمالها أداة التأليف والكتابة(الزعفراني، حاييم، 2003:75).

أما في العصر الأوربي الحديث، فإن المفكر الألماني يوهانس التوسيوس Johannes Althusius (ت 1638مـ) هو أول من أشار إلى فكرة التعايش بين الجماعات البشرية المختلفة الأديان والأصول في دولة واحدة، في حين أن جون لوك John Locke(ت 1704مـ) صاحب كتاب"رسالة في التسامح" الذي صدر عام1689مـ هو الذي دعا إلى فكرة التسامح، وأن جان جاك روسو John Jacques Rousseau (ت 1778مـ) هو الذي طورها بتوسع في كتابه المشهور"العقد الاجتماعي"، حيث غدت السياسة في المجتمعات الأوربية الغربية في تلك الفترة(عصر الأنوار) على حد تعبير الشاعر والسياسي الفرنسي الفونس دولا لامارتينAlfonse de Lamartine (ت 1869مـ) علما تجريبيا خالصا يقوم على معرفة الناس، وملاحظة الحقائق، وعِبر التاريخ، وأصبح مصدر السلطة ومبدأها ليسا إلهيين وإنما الاتفاق العام(توشار، خان، 2010: 571).

3- الإسلام ومسألة التعايش بين الشعوب والحوار بين الأديان:

لما كانت قضية التعايش والحوار قد تبلورت اليوم أكثر من أي وقت مضى، ولما كان لها القدر الكبير من التأثير في الواقع الإنساني، لزم أن يكون للفكر الإسلامي موقف محدد إزاءها، يجلي الحقائق، ويحدد المعالم، ويزيل الشبهات ويدحضها، ويفند المغالطات ويبطلها. فَبِحَسبه أن التعايش والحوار قيم راقية من القيم الإنسانية، تعبر عن حقيقة الحضارة الإسلامية، وتتلاءم في الجوهر مع الرسالة

المحمدية، وتعكس الإرادة في التعامل العادل مع الأديان والثقافات والحضارات جميعا، وهو ما يسجله القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى:"قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلىَ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ"(آل عمران، 64)، كما تسجل السيرة النبوية عديد المواقف للحوار بين المسلمين وأهل الكتاب بدءًا من قصة بحيرا الراهب، وورقة بن نوفل النصراني، وصولا إلى حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود حول الروح، ومع وفد نصارى ورغم أن الناس يختلفون في أشكالهم، ويتميزون في أعمالهم وتصرفاتهم، ويتباينون في أفكارهم ومعتقداتهم، إلا أن التدافع بينهم سُنة طبيعية سَنها الله تعالى بين البشر، وان الإسلام يدعو المسلمين إلى ضرورة التواصل والحوار مع الثقافات والديانات الأخرى، من منطلق الشاهد والحاضر والمؤهل، لِلَعب دوره ووظيفته التاريخية من أجل تفعيل وبلورة وصيانة النظام الإنساني في ظل الحرية والعدل والمساواة، وتاركا حرية اختيار المعتقد والفكر والمذهب وطريقة الحياة لجميع الناس (الريامي، محمد، 2016: 307).

إن المشروع الإسلامي يدعوا إلى التعايش بين الشعوب والطوائف والأقليات، وحسن المعاملة والمعاشرة والعيش بين كافة المجتمعات، مع الاختلاف الديني والفكري والثقافي، باستعمال خطاب حكيم وسلوك قويم في مخاطبة الآخر، قال الله تعالى"اُدْعُ إِلىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمُوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَدِلهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ"(النحل، 125). على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الحوار والتعايش في الإسلام. إنه منهج حياة كامل متكامل في ترسيخ مبادئ الحوار بين الشعوب والأمم.

إن الإسلام يقر التفاعل والتعاون في كل ما هو مشترك إنساني عام، لأنه مبدأ عميق، ذو جذور إيمانية، ينطلق من قاعدة عقائدية، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة، وأن مفهوم التعايش في المنظور الإسلامي جاء عبر سلسلة

طويلة من الرسالات والنبوات، آخر حلقاتها اليهودية فالمسيحية، فمن الطبيعي أن تكون هذه الديانات أقرب إلى بعضها بعضا منها إلى سائر الأديان، ويسمي القرآن اليهود والمسيحيين أهل الكتاب، ويعدهم أهل ديانات سماوية حتى وان لم يكن هذا الاعتبار متبادلا، وان الإسلام استوعب الخلاف، هذا الخلاف(المعتقد)، الذي رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم(حتحوت، حسان، 1998: 155).

إن الدين الإسلامي مبني على الإيمان، بأن دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في أصوله ومقاصده، من هداية البشر وإصلاحهم، وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة، وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان، وان الدين الإسلامي من دون أهل الملل والأديان انفرد بحقيقة عادلة مهد بها السبيل للأخوة الإسلامية عامة.

كما أن من بين المبادئ الإسلامية الراسخة، عالمية الرسالة، والتي هي الأساس الثابت الذي تقوم عليه علاقة المسلم مع أهل الأديان السماوية، ومن هذا المبدأ تنبع رؤية الإسلام إلى التعامل مع غير المسلمين، فلا تكتمل عقيدة المسلم إلا إذا آمن بالرسل جميعا، لا يفرق بين احد منهم، وهذا هو البعد الإنساني الذي يعطي للتسامح في الإسلام مساحات واسعة. ولكن لا يُفهم هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسا راسخا لعلاقة المسلم مع غير المسلم، على أنه انفلات أو ذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر الدين الإسلامي، وان التسامح لا يلغي الفروق والاختلافات، ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس(رشيد رضا، محمد، (1960:153).

يشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغيرهم في البلاد المفتوحة كانت مثالا رائعا من التسامح والتعايش، لا مثيل له في التاريخ (النصارى واليهود في الشرق وفي الأندلس وفي القسطنطينية)، ويتضح مدى نبله بالمقارنة مع وضع الأقليات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة اليهود والنصارى والبوذيين والوثنيين عامة(المسلمون

في ميانمار، الصين، الفليبين، نيجيريا، والتمييز الديني الثقافي في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية). ومن بين المشاهد على التسامح الإسلامي مع غير المسلمين والتي سجلها التاريخ بحبر من ذهب، هو عندما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بيت المقدس،ولما حان وقت الصلاة رفض تأديتها في قلب الكنيسة خوفا من أن يقتدي به المسلمون من بعده، وقد يؤول بهم الأمر إلى الاستيلاء على الكنيسة، مخالفين بذلك ما نصّ عليه من احترام للكنائس، وتركها بأيدي أصحابها في العهد العّمري، بل صلى خارج الكنيسة، وكتب أمرا بان لا تقام في هذا المكان صلاة جماعة، ولا يؤذن فيه مؤذن، ثم أتى الصخرة فبنى عليها مسجد الصخرة(الطبري، محمد، 1966: 155)

وإذا تصفحنا حلقات التاريخ أيضا، لوجدنا صورا كثيرة ومتنوعة من أوجه التعاون والوقوف إلى جانب أصحاب الملل الأخرى تشهد بسماحة المسلمين وانفتاحهم، من ذلك مثلا، التجربة التاريخية الأندلسية التي تميزت بتعايش سلمي وتبادل ثقافي مخصِب بين الرسالات الإبراهيمية التوحيدية الثلاث: الإسلام والنصرانية واليهودية، مما سمح للآخر، ليس أن يعيش في سلام، بل أن يبدع ويعبر عن هويته الدينية، فقد نال النصارى في ظل الحكم الإسلامي الأموي من الحقوق ما وفر لهم نوعا من السيادة والحكم الذاتي، والاحتفاظ ببعض السلطات، منها السلطة المدنية التي يمثلها القومس(Comes) لإدارة الشؤون الخاصة أمام السلطات الإسلامية، ولم يكن الحكام المسلمون يُعينُون سوى قومس الأندلس الذي كان يشرف على بقية القوامس، ويمثل الحاكم المدني العام للنصارى الذميين، والسلطة الدينية التي كانت من صلاحيات رجال الكهنوت الذين يشرفون على الكنائس والأديرة، ويقومون بشؤون العبادة والأعياد الدينية، وأعظم منصبين كنسيين بالأندلس كانا لأسقف قرطبة ومطران طليطلة، والسلطة القضائية التي كانت خاصة بهم، إلا إذا كان احدهما مسلما فيرجع الأمر إلى القضاء الإسلامي(قنديل، أحمد، 1984: 215).

لقد ولَدت هذه السلطات شعورا لدى النصارى بنوع من السيادة والحرية والتسامح، هذا التسامح الذي هو ليس وليد الفترة الإسلامية الأندلسية فقط، بل يعود في جذوره إلى الدولة الإسلامية منذ نشأتها التي كانت تسمح للمسيحيين ببناء الكنائس وصيانتها، وحفظ أرواح وممتلكات المسيحيين، ووجود مستشارين نصارى سواء لبني أمية أو لبني العباس، كسرجون النصراني مستشار معاوية بن أبي سفيان والذي بقي مستشارا حتى بعد وفاة معاوية، واتخاذ أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد مستشاريهم من عائلة البرامكة، مما سهل عملية اندماجهم في المجتمع العربي الإسلامي، وغدوا ينتمون إليه ثقافيا وحضاريا(Provençal, Levi,1932 :37)

أما اليهود الذين عاشوا معاناة بلغت ذروتها في ظل الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السابع الهجري، فقد نالوا تحت حكم المسلمين ما ناله النصارى من حقوق، وصاروا مثلهم، واندمجوا اندماجا كبيرا في المجتمع العربي الإسلامي، فازدهرت الثقافة اليهودية، والأدب العبري ازدهارا لا تزال آثاره باقية إلى اليوم، وتحولت اللغة العِبرية من لغة ميتة ومحدودة الاستعمال في الطقوس والنصوص الدينية، إلى لغة حية لها استعمالاتها في شتى مناحي المعرفة العلمية والأدبية، وتقلد بعض اليهود مناصب عالية في الدولة، فكانوا أطباء ومترجمين وكتبة ومستشارين، ومنهم سلومون (شلومو) بن يهوذا بن جيبيرول(ت 1058مـ) والذي يعرف لدى المسلمين بسلمان بن يحي، وأبي يوسف حسداي بن إسحاق بن شفروط (أو شبروط) طبيب الخليفة العالم الحكم المستنصر، وأبو إبراهيم صموئيل(أشموال) بن يوسف اللاوي(ت 1056مـ) الملقب بـ"هّمجيد التلمودي" والذي وصفه ابن صاعد بان"عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها والذب عنها ما لم يكن عند احد من أهل الأندلس"، كما وصفه أيضا ابن حزم بقوله" بأنه أعلم اليهود وأجدلهم(ابن حزم، علي، 1985: 245)، ولكن في الحقيقة ما كان لهؤلاء أن يقوموا بهذه الأدوار لولا سماحة الإسلام والمسلمين.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أَذِكر بدعوة الأمير عبد القادر الجزائري والتي كانت حتى قبل دعوات الهيئات الدولية والإقليمية في العصر الحديث، فمن معتقله بسجن بو(Pau) بفرنسا طرح فكرة الحوار وخاض غمارها مع أشهر ممثلي الأديان في ذلك الوقت، ولعل العبارة التي أوردها أحمد بويردان في مقال له خاص بالأمير عبد القادر والتي تلخص المرتبة والمكانة التي احتلها الأمير في هذا الشأن وفي ذلك الزمان، قوله: "في قلب القرن التاسع عشر الميلادي، ومن خلال اللقاءات والمراسلات بين الأمير عبد القادر الجزائري وعدة شخصيات، وبفضل تفتح الامير وذكاءه وتسامحه مع البروتستانتي جونيفوى شارل اينار، والكاثوليكي الفريد دي فالو، والسيد دلباش، الذين ثبتوا الأمير كقائد للحوار المثمر بين الإسلام والمسيحية'.(Bouyerdene, Ahmed, 2011:125)

بالرجوع إلى ما كتبه الأمير عبد القادر فإن الخلاف بين الأديان هو في سوء الفهم، وعدم الإصغاء، وغياب الصدق في طلب الحق من بعضهم بعضا، وفي الوصفة التشخيصية لأمراض أصحاب الديانات اليهودية والمسيحية وحتى الإسلامية المتمثلة في المذاهب الكلامية المسلمة، وفي جهل أهل الديانات في عدم قدرتهم على استيعاب مطلق تجليات الحق، وفي حصرها في المنظومات الدينية المسماة'عقائد مقدسة' (الأمير عبد القادر، 2005: 447)، ولعلي أَخْلُص من هذه الرؤية للأمير عبد القادر التي يقصد من خلالها'نظرية التجلي وأسرارها' بالموقف الشهير للأمير عبد القادر الجزائري الدال على التسامح والتواصل الديني عندما أطفأ نار الفتنة التي اشتعلت بين النصارى والدروز بدمشق سنة1860مـ، وأنقذ ألاف المسيحيين من القتل، وحين تلقى رسالة شكر لصنيعه من أسقف الجزائر يومها'لويس أنطوان أوغسطين بافي' (Louis-Antoine-Augustin Pavy) رد عليه بقوله:'ما فعلناه من خير للمسيحيين ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام، واحترام لحقوق الإنسان، لأن كل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله...وأن الخلق كلهم يعرفون الله ولو بوجه ما' (مرابط، جواد، 2007: 46).

كما أنني أود خَتم هذه النقطة بذكر بعض الشهادات لمؤرخين أوربيين اعترفوا بجميل الحضارة الإسلامية التي كانت أكثر الحضارات المنفتحة على التاريخ، وبصنيع المسلمين الذين لم يطمسوا الحضارات التي وجدوها أمامهم، ولم يقابلوها بالعداء، ومنهم وليام روبرتسون سميث William Robertson Smith (ت 1894مـ) وتوماس كارليل Thomas carlyle (ت 1931مـ) وغوستاف لوبون Gustave le Bon (ت 1931مـ) الذي كتب يقول:'إن الأمم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير أطلال، وصارت أديانها ولغاتها وفنونها ذكريات، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية' (الرافعي، مصطفى، 1981:من المقدمة).

4-التعايش والحوار عند المسيحيين:

إذا كان المسلمون وعبر مراحل التاريخ وفي كل المناطق التي حلوا بها قد اعترفوا بالنصارى واليهود كأهل كتاب، وأن لأتباعهم حقوقا وواجبات ومقاما، فإن الكنيسة لم تعترف بكيان مماثل للمسلمين في المجتمع المسيحي، بل على العكس من ذلك، اعتبرت الإسلام والمسلمين خطرا يتهدد المسيحية واليهودية دينيا وحضاريا. إن تاريخ العلاقات الإسلامية مع باقي الديانات الأخرى خاصة المسيحية عبر الأزمنة يشهد أن المسيحي لم يكن يعرف معنىً للتسامح، ولم يكن تعامله مع المسلمين يرتقي إلى مستوى التعايش، وان الكنيسة لم تغير ولم تطور موقفها من المسلمين منذ القرون الوسطى عندما حكم عليهم القديس توما الأكويني ودانتي بالشعوب العَدُوة التي لا يتغير وضعها في نظر الكنيسة، وهو ما أثبته شارل جينيبر بقوله:'أن المسيحيين(الغربيين) لم يفهموا العقائد المسيحية في العصور القديمة قط، كما لم يصلوا إلى إدراكها في العصور اللاحقة'(جينيبير،شارل،دت:209).

وعليه، ليس من الأمانة التاريخية أن نتجاوز هذه الظاهرة الإنسانية المسجّلة في أصحّ المراجع من دون الإشارة إليها للاعتبار، وبدافع الرغبة في التعايش، والحرص عليه والاستجابة لدواعيه. وحتى تستبين لنا معالم السُبل، نذكر أن أهل الأديان عموما لم يكونوا

في تعاملهم مع المسلمين طوال المراحل التاريخية في مستوى التسامح الذي تحّث عليه تعاليم كل دين، وان الحضارة الإنسانية خسرت كثيرا بما كان يمارسه أهل الأديان الأخرى من اضطهاد ضد الشعوب الإسلامية في عصور مختلفة، سواء أكان ذلك في القدس(الحروب الصليبية) أو في الأندلس(محاكم التفتيش) أو في جميع البلدان الإسلامية التي وقعت تحت نير الاستعمار الأوربي، وفي الدول التي توجد بها أقليات إسلامية في العصرين الحديث والمعاصر.

إن ما يرويه بعض المؤرخين الأوربيين حول ما صنعه قادة الصليبيين(جودفري- وتانكرد) بالقدس، وعلى لسان القساوسة الذين شاهدوا المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها، يدرك الصورة التي كان الفكر المسيحي ينتهجها مع الإسلام والمسلمين والتي اتفقت مع مسيرة الصراع الذي رسمته الكنيسة مع الدول الغربية التابعة لها، ومن بين الشهادات، ما رواه المؤرخ الانجليزي تايلور(Taylor) في كتابه'عقل القرون الوسطى' على لسان أحد القساوسة قوله:'وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قُطِعت رؤوس المسلمين، وقُتِل غيرهم بالسهام، وأُرغِموا أن يلقوا بأنفسهم من فوق القلاع، وعُذِّب آخرون ثم القوا في النيران، وكانت الطرقات مليئة بأكوام الرؤوس والأيدي والأقدام'، أما المؤرخ ديوانت(w .Durant) فيروي في موسوعته'قصة الحضارة' عن بعض المعاصرين لهذه الحملة قولهم:' أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويُقذَف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعُمُد، وذبح السبعون ألف من المسلمين الذين بقوا في المدينة' (ديورانت، ول، د ت:25)، كما يصف المؤرخ ميشائيل دارسيرر (M.Darserrer) مشهدا لبطريرك وهو يَعدُو في زقاق بيت المقدس وسيفه يقطر دما، حاصدا به كل من وُجد في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يده تخلصا من الدماء اللاصقة بها، مرددا كلمات المزمور التالي'يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس حقا أن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلها يقضي'(الحصين،صالح،دت:62).

قد لا نسوق هذه الشواهد التاريخية رغبة في إنكاء الجراح واستحضار مساوئ التاريخ(لأن وفي اللحظة التي أكتب فيها هذا المقال لا زالت دماء المسلمين تجري في العديد من المناطق الإسلامية)، وإنما لنؤكد أن التعايش كان ولا يزال وسوف يظل قيمة راسخة من قيم الحضارة الإسلامية، وصفة متجدرة من صفات المسلمين، ومبدأ ثابت من مبادئ الإسلام، وأن التسامح أصل أصيل مع أهل الأديان والملل. وعليه فإن المسلمين هم رواد التعايش عبر التاريخ، وأنهم يملكون وفي كل الأحوال استعدادا ذاتيا ليتعايشوا مع من يرغب من أهل الأديان والعقائد، تعايشا يخدم الأغراض الإنسانية السامية من خلال التفاهم والتعاون لتحقيق هذه الأغراض، ولعله من المناسب في هذا المقام أن نستحضر مقولة أرنولد توينبي'الحضارة المعاصرة في حاجة ملحة إلى أن تتعلم من إنجاز الإسلام في إلغاء التمييز العنصري بين البشر' (توينبي، أرنولد، 2011: 172).

للعلم، أن التسامح الديني الذي عرفته أوربا مع نشوء حركة الإصلاح الديني كان تسامحا بين الطوائف المسيحية ولم يكن يشمل غير المسيحيين، ففي انجلترا على سبيل المثال نهض بالدعوة إلى التسامح بعض المفكرين البارزين، منهم هارنجتون(Harrington)، وملتون(Milton)، وقد أدرك الأول، أن الحرية السياسية لا تستقيم بغير حرية دينية مطلقة، وأن الحرية الدينية تتضمن حرية الضمير، وتكون حرية الضمير متى تمكن الإنسان من مزاولة تعاليم دينه وفقا لإملاء ضميره الحر من غير عائق، بينما أقام الثاني دفاعه عن التسامح على أساس أن قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد الذي يعوق اكتشاف الحقيقة، لأن التسامح عند ظهوره في أوربا لم يكن يسري على كل المسيحيين، ورغم ذلك فإن ملتون كان يستثني الكاثوليك في تطبيقه لمبدأ التسامح بحجة أن عبادتهم وثنية، وان العهد القديم قد نهى عن عبادة الأوثان(الطويل، توفيق، 1991: 123).

أما في القرن18مـ فقد سعي ايمانويل كانط Emmanuel Kant(1724-1804مـ) إلى تصحيح المسيحية كممارسة، والى محاولة تبييض وجهها، خاصة وأنها كانت الهاجس الذي شغله ضمن

فلسفته في الدين، محاولا إدخال بعض التعديلات عليها، من جراء رفض المظاهر التي باتت تسيطر على الديانة المسيحية من قبل رجال الدين أو الكهنوت من تعاليم تتجاوز الأخلاق، وأن لا يجب تقييد الإنسان بالفروض الكنسية، لأن غياب الأخلاق هو سبب تراجع الأديان، وأن الدين الصحيح الوحيد لا يتضمن إلا قوانين عملية موحاة بواسطة العقل الخالص، وان مهمة المسيح في العالم، إنما هي رفع الأخطاء والذنوب.

ورغم موقفه هذا، إلا أنه كان أكثر ميلا واختيارا للمسيحية، تلك التي تخلصت من بقايا اليهودية ذات الطابع السياسي، واقترنت بالنظريات الأخلاقية اليونانية. هذا الموقف قابله رفض ونقد للديانات الأخرى، وخاصة اليهودية والإسلام، باعتبارهما لا يعبران عن المعنى الحقيقي للدين حسب رأيه، فاليهودية مقاطعة للشعوب، والإسلام يقترن بالانتصارات وليس بالمعجزات(Emmanuel, Kant, 2015 : 186).

واستكمالا لهذا الموقف، قامت الكنيسة الكاثوليكية الغربية ومنذ ثمانينات القرن الماضي إلى عقد سلسلة من اللقاءات فتحت الدعوة فيها إلى الحوار والتعايش بعنوان'الحوار مع الإخوة من ديانات أخرى' هذه الدعوة التي قال عنها البابا بولس الثاني(كارول جوزيف فوتيلا) أنها تتضمن رأيه وموقفه من الإسلام والمسلمين، والتي جاء فيها:' إن الحوار بين الديانات يشكل جزءًا من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا تتعارض مع الرسالة إلى الأمم، إنه بالعكس مرتبط بها، بنوع خاص وهو تعبير عنها'، ثم يستطرد مع التأكيد على أن الخلاص يأتي من المسيح، وأن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل لإن الكنيسة لا تعتبر أن هناك ثمة أي تعارض بين البشارة بالمسيح والحوار بين الديانات'(بدوي، عبد الرحمن، 1980: 78).

وإذا كان هذا النص ليس بحاجة إلى تفسير، لأنه شديد الوضوح في تحديد معنى الحوار في نظر البابا يوحنا بولس الثاني، والذي لا يخرج عن كونه مجالا لمواصلة عملية التنصير وترسيخها،

فإن هناك نصا آخر ورد في العظة الرسولية المعنونة بـ'تبليغ التعليم الدين للبابا نفسه جاء فيه إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن ينفصل عنها'، إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية' (عبد العزيز زينب،1995:106).

إذن فالحوار في نظر الفاتيكان يرمي إلى تنصير العالم، وبالتالي يفقد جدواه وقيمته، حين ينقلب إلى توجيه لا يخدم الأهداف الإنسانية، خاصة عندما يتزامن مع التخطيط المناوئ للإسلام والمسلمين، والمتعاضد مع اليهودية الصهيونية، هذا التأثير واضح لليهودية الصهيونية على بعض الأطراف المسيحية(بريطانيا وفرنسا على سبيل المثال) والذي يصب في الاتجاه المناهض للحقائق التاريخية، بظهور جمعيات دينية مسيحية إنجيلية أهمها وأقواها ما يعرف بالحركة التدبيرية (Dispensationalism)، هذه الحركة التي هي في الحقيقة أداة للهيمنة والتسلط، وإدارة الأساليب العنصرية التمييزية، والتي ترابطت خيوطها باستصغار واستحقار الآخر، جوهرها المشاكل النفسية الروحية(الأنا المتضخمة) سواء في شكلها الفردي أو الجماعي، هذه النزعة الاستعلائية والتسلطية، تأخذ مظاهر معرفية دينية وسياسية متعددة، والتي صارت تعرف حديثا بـ'الإقصائية Exclusivisme' (المقراني، عدنان، 2008:21)

وعليه، فإن مسألة الحوار والتعايش محاولة لفك العُقد التاريخية المزمنة بمواجهتها وتجاوزها عوض إخفائها، حتى لا تبقى أشباحا تلهب العواطف بالعداوات القديمة، فلا يمكن اليوم، التفكير جديا في ظل فرضية غياب الآخر، وإلا تحولت هذه الدعوة إلى مجرد شعار عالمي، يرى السلبيات ويهمل الايجابيات، يغفل التوافقات ويعتبر الاختلافات، مع أخلاق معرفية لا تحترم الإنسان، ولا تستسيغه لمجرد أنه آخر مختلف، ترى فيه خطرا يجب الحذر منه. وبعبارة أخرى، أليس الحوار والتعايش هو التوجه الإنساني نحو التعارف والتعاون

والبحث عن مواطن اللقاء، بناء على قاعدة معرفية علمية وتاريخية من دون إغفال الروح النقدية، وأولها نقد الذات قبل نقد الآخر، أو نقد الذات في ضوء نقد الآخر والعكس.

وقد تكفينا شهادات بعض مؤرخي ومفكري الغرب ما لحق المسيحية عبر التاريخ من تشويه وتحريف من قبل الأباطرة الوثنيين في القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح عليه السلام، وما قام به الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، وما قام به بولس(شاول الطرطوسي) والمجامع المقدسة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم...واختراع قصة الصلب والفداء، وعبادة الصليب...وعزل العقيدة عن الشريعة، وفي ذلك يقول الفيلسوف رينان'ينبغي لفهم تعاليم اليسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه، أن نبحث في تلك الشروح والتفاسير الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار' (أبو زهرة، محمد،1984:215).

5-حتمية وضرورة الحوار والتعايش بين الأديان:

لعلي أبدأ هذا الطرح لحتمية وضرورة التعايش والحوار عند المسلمين من خلال هذه النظرة التاريخية التي تفصل فيها الدراسات الدينية، وتؤكد على أن الإسلام ليس بالدين الغريب أو المجهول بالنسبة للتراثين التوراتي والمسيحي، حيث عاش المسيحيون مع المسلمين في الشرق جنبا إلى جنب، كما خلَّف الإسلام بإسبانيا طيلة الثمانية قرون(من القرن الثامن وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي) كثيرا من الأواصر الثقافية المتينة، والتي لا يزال الأوربيون يشعرون بتأثيرها حتى في يومنا هذا.

فإذا استعرضنا الماضي، نجد أن الإسلام والمسيحية الشرقية دينان عاشا على علاقة وثيقة ببعضهما، وبالرغم من المواجهات وحالات سوء الفهم التي حدثت مع مرور الزمن، إلا أن العلاقات التي تربط بينهما لم تنقطع أبداً، وأن الخلافات والاتصالات لم تكن ذات طبيعة عسكرية فقط، بل ذات طبيعة ثقافية وعلمية أيضا، بحيث ومنذ القرنين الأولين للهجرة بدأ المسلمون محاولاتهم التفاعل والتعايش مع الأديان التي كانت سائدة في ذلك العصر خاصة النصرانية واليهودية،

وظل المسلمون على ذلك الحال حتى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يترصدون المبادرات الغربية القليلة التي كانت تنصف الإسلام كحضارة، بل وظهر في الأوساط الفكرية الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين تيار من العلماء المسلمين أعلنوا إعجابهم بالأسلوب العلمي والنهضة الغربية، فتوجهوا إلى الجامعات الأوربية والأمريكية لدراسة مختلف العلوم، ومما ساعدهم في ذلك بعض المستشرقين المنصفين -إن جاز التعبير- أمثال هاملتون جب ومونتغمري وات وبلاشير وغيرهم، والذين لم يترددوا في التعبير عن ما قدمته الحضارة الإسلامية من إسهامات بارزة في المسيرة الحضارية الإنسانية(توشار، خان،2010: 100).

ثمة حوار مهم وجوهري آخر حدث بين المسيحيين والمسلمين بدأ في أواسط القرن الثامن الميلادي ألا وهو نشاط حركة الترجمة الأدبية والعلمية في داخل العالم الإسلامي التي نقلت أعداد كبيرة من مؤلفات قدامى فلاسفة وعلماء اليونان إلى اللغة العربية، مع العلم أن هذا النقل للفكر اليوناني للعالم الإسلامي شكل أحد أكثر الفصول إشراقا في تاريخ الفكر الإسلامي، وفيه اعترفوا بفضل الغرب، وأنصفوا في اعترافهم، ولم ينسبوا لأنفسهم ما هو لغيرهم، وهذا ليس عجيبا أن يتخذ المسلمين مثل هذا الموقف من العقل التاريخي، لأن حضارتهم قامت على أساس وحدة النوع البشري. فإذا كان قدماء اليونان قد دونوا هذا العقل ليكون ذخيرة يقوم عليه التطور الفكري لمن جاء بعدهم، فإن المسلمين كانوا يستشهدون بأرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم، ولكنهم في العديد من كتبهم لا يهتمون بالأسماء بقدر اهتمامهم بالأفكار والعلوم والمناهج.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي انتقلت الشعلة الفكرية المضيئة التي رعتها وتعهدتها الفلسفة الإسلامية إلى الغرب الإسلامي، والتي مهدت بذلك الطريق لنشوء روح النهضة والتنوير في أوربا، فعلى على سبيل المثال اهتم المبشر ريموند لول(R.lull) بمنطق الغزالي على وجه الخصوص، واتجه ديكارت(R.descartes) إلى منهج ابن سينا في تحديد العقل، واعترف ليبنتز(G.leibniz) بمصطلحات

الغزالي كالعقل الكلي والنفس الكلية والعلم الكلي وغير ذلك، وعلى كتب العرب وحدها اعتمد علماء الغرب بعد القرن الخامس عشر أمثال كروجر بيكن وليونارد البيزي وسان توما والبرت الكبير ... وهي الحقيقة التي أوضحها ليبري بقوله'لو لم يظهر العرب على مسرح الأحداث لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون'، وأعلنها ارنست رينان حين قال: 'الغرب مدين للعرب' (Ernest, Renan, 1997: 18)، كل هذا الاتصال الروحي بين الحضارتين المسيحية والإسلامية شكل حوارا وتعايشا دام قرونا، عاد بالفائدة على شعوب الشرق والغرب معا.

أما نظرة المسيحيين إلى التعايش والحوار فسنعرضها من خلال جملة من اللقاءات والمؤتمرات التي عقدت منذ ثمانينات القرن الماضي، وقدمت وجهات نظر المسلم إلى المسيحي، ونظرة المسيحي إلى المسلم في الواقع المعاش، ومن بين اللقاءات التي كان لها شأن كبير، الحوار الإسلامي المسيحي عام1984مـ مع الكنيسة الإنجيلية الانجليزية ممثلة في اللجنة المستقلة للعلاقات الإسلامية المسيحية بانجلترا، ومع الكنيسة الأرثوذكسية ممثلة في المركز الأرثوذكسي للبطريركية المسكونية بسويسرا، ومع الكنسية الكاثوليكية ممثلة في المجلس البابوي للحوار بين الأديان بالفاتيكان، ومع الكنيسة الإنجيلية الألمانية ممثلة في اتحاد الكنائس الإنجيلية في هانوفر بألمانيا، كما عقدت لقاءات أخرى في أثينا واسطنبول وعَمان(الاردن)، وكل هذه اللقاءات تمحورت حول كيفية تطوير الحوار وتوسيع قاعدته في ظل الاختلافات الكثيرة في الألوان والأعراق والأنساب واللغات والأديان...

لا شك أن الحوار الديني بين المسلمين وغير المسلمين وخاصة المسيحيين يقدم استمرارية واطرادا لافتين للنظر، وذلك بالرغم من نوازل الزمان التي تُشَوهُ الرؤية الشمولية للتعايش بين المؤمنين من جميع الأديان، سواء عن طريق استثارة ظواهر التعصب الديني، أو عن طريق الآثار الجانبية الأكثر عمومية لهذه الظواهر المحلية على نطاق عالمي، حيث يبدو في عصرنا الحاضر أن كل

إنسان على استعداد للاعتراف بأن الحوار بين الأديان ليس مجرد حاجة ملحة للإنسان، بل هو أفضل طرح موثوق به من أجل التعايش السلمي بين الشعوب، ومن أجل حماية حقوق الإنسان دون تمييز عنصري أو ديني أو غيره من ضروب التمييز.

وفي هذا الشأن، يذكر داماسكينوس باباندريو أن الحوار والتعايش يستلزم تطهير التعليم المسيحي والإسلامي من أدران التحامل أو المرارة التي وصمت الماضي التاريخي، والرد على التحدي المتمثل فيما إذا كنا نريد حقا أن نبني جيلا جديدا على أسس السلام والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، وأن نعطي القصور الديني الموجود عند الطرفين حول الآخر، وحول معنى المواطنة المشتركة لأتباع الديانات الأخرى في المجتمعات المسيحية أو الإسلامية التي تتلقى التغذية المتواصلة من مواقف الماضي، النظرية أو التشريعية المتسمة بالجحود، وأن كلمة الدين هي كلمة السلام، والعدالة والأخوة بين الأفراد والشعوب، وأن التعايش بين الشعوب أمر لا يمكن التضحية به من أجل المواقف غير السليمة للماضي التاريخي، أو لتردد هذا الماضي، وأن فكرة الآخر فيما يتصل بالمعتقدات الدينية ليست تهديدا، بل على العكس من ذلك إنها حافزا على تطوير المجتمعات (داماسكينوس، باباندريو، 2000: 15).

إن التنوع الديني لا ينطوي بالضرورة على العداوة بين أتباع العقائد المختلفة، وأن ما يؤدي إلى المفاقمة هي روح التعصب المنافية لجميع الأديان، وأن أولئك الذين ينشرون بذور التعصب هم الذين يريدون فرض الهيمنة العلمانية في لحظات الاضطراب والصراع... ذلك أن السلام في كل من المأثورات المسيحية والإسلامية هو الخير الأعظم، والعنف الجسدي هو الشر الأكبر، وهو ما تلخصه الآية الكريمة قوله تعالى:' قُلْ إِنمَّا حَرَّمَ رَبِيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بغير الحق' (الأعراف،33).

ولذلك، جرى وتجري محاولات عديدة لترقيع صورة الأنا في نظر الآخر، صورة المسيحي في نظر المسلم، وصورة المسلم في نظر المسيحي، أحيانا استهدفت عمليات الترقيع طمس بعض المعالم

غير المستحبة في وجه هذا أو ذاك، واستهدفت أحيانا أخرى، إجراء عمليات تجميلية لهذا الموقف أو ذاك، غير أن المطلوب أمر آخر، مختلف تماما، المطلوب هو وضع أسس تربوية تقوم على أساس قبول الآخر واحترامه كما هو، لأننا به نكتشف ذواتنا وبمعرفته تتكامل معرفتنا، ولأننا جميعا نسعى إلى معرفة الحقيقة والتي هي ضالة كل مؤمن... إن السلام يعني جميع الأديان، والحاجة إلى التعاون والتعايش السلمي بين الأديان من المبادئ الأساسية للكنيسة، فالسلام هو الميراث المقدس الذي تركه عيسى المسيح عليه السلام لتلاميذه ومن خلالهم للكنيسة، وهذا هو السبب في أن السلام للعالم بأسره هو التضرع الأهم، وفي ظل هذه الروح تُدعى الكنائس من أجل أن تسهم إسهاما ملموسا في التفاهم والتعاون المتبادلين بين أتباع جميع الأديان في العالم(زياكاس، جريجوريوس، 1998: 40).

صحيح أن الكنيسة وعلى وجه الخصوص الكنيسة الشرقية القديمة نقلت الإيمان بعيسى المسيح عليه السلام، وكانت تحترم اللغة والهوية الثقافية للشعوب، وابتكرت الحروف الهجائية، وترجمت النصوص المقدسة، ونقلت الفنون، وساهمت في تطوير الحياة الروحية للشعوب، ولكن من سوء الحظ، فإن هذه الروح لم يتم الحفاظ عليها بسبب النزاعات والحروب الصليبية، والاستعمار بكل أشكاله الذي الحق أضرارا بصورة المسيحية في الشرق كما في الغرب، بل وفي كل المناطق التي تم االسيطرة عليها.

من المنظمات الكنسية الكبرى التي تضرب بسهم وافر، وتعمل على تعزيز الحوار مع مؤسسات الأديان الكبرى، مجلس الكنائس العالمي الذي يضم الكنسية الأرثوذكسية تحت رعاية البطريركية المسكونية في القسطنطينية، والكنسية الكاثوليكية في مجلس الفاتيكان، والتي دعت إلى أهمية القيم الروحية للأديان الأخرى، أما الروح العامة المسيطرة على هذا الحوار بين الأديان فهي روح المصالحة والاعتراف بالحرية الدينية وبندّية الأديان الأخرى(زياكاس، جريجوريوس، 1998: 43)

إن المتتبع لمراحل التاريخ بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية، يدرك تمام الإدراك أن مسألة التعايش والحوار، وإن سجلت بعض الصفحات الناصعة خاصة من جانب المسلمين الذين تعايشوا مع الآخر(اليهود في الأندلس وفي القسطنطينية على سبيل المثال)، كانت ومازالت قاب قوسين أو أقرب من سراب منها إلى الحقيقة الواقعية، لأن معرفة المسيحي بالإسلام معرفة مشوهة، بمعنى أن المسلم يشكو تحديدا من النظرية الغربية التي تتهم المسلمين والإسلام كدين بأنه السبب الأساسي وربما الوحيد وراء تخلف العالم الإسلامي كله بما فيه العالم العربي، وان معرفة المسلم بالمسيحية معرفة مهزوزة، تتسم بالارتباك الشديد، نتيجة ما يبدو اضطرابا بين النص القرآني الذي يمنح أهل الكتاب مكانة خاصة، والصورة المعرفية لمفهوم التوحيد عند المسيحية، وان الحذر المتبادل من الدخول في حوار لاهوتي- فقهي له ما يبرره عند المسلمين وعند المسيحيين معا.

عموما، فالحوار بين الأديان سلامة للقيم الإنسانية، وسلامة للبيئة في القضاء على الانحلال الخلقي، ومحاربة الآفات والأوبئة التي تتهدد كيان الفرد والجماعة، والقضاء على أسباب التوتر والاضطرابات في العديد من مناطق العالم (فلسطين، البوسنة والهرسك، السودان، الفليبين...) وإنصاف المظلومين والمقهورين (الروهينغا) في العالم.

وإننا كمسلمين ومن واقع تقديرنا للمخاطر التي تتهدد البشرية في هذه المرحلة من التاريخ، نؤمن بأن التعايش مع أتباع الأديان بصفة خاصة ضرورة من الضرورات الملحة التي يفرضها الحفاظ على سلامة الكيان الإنساني، وان القرآن الكريم أقر التعايش السلمي بين الإسلام وأديان أهل الكتاب التي تحتوي على المضامين ما يتفق ومضمون الإسلام، وان المستند الذي ينطلق منه الحوار القرآني هو الاحتكام الدائم إلى موازين المنطق والعلم، وهو ما يعرّفه العلماء بأنه' إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل منضبط بقواعد المنطق وأصوله' (البوطي، محمد سعيد، د ت:06)

-خاتمة:

لا جدال في أن إعادة الصياغة المفهومية للعلاقة بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي في إطار الحوار والتعايش مهمة في غاية التعقيد، لكنها تظل مطروحة بإلحاح ولا يجوز أن تغيب، إذا ما افترضنا أن الدعوة في الفكر السياسي العالمي هي دعوة جدية، ولا بد أن تجتاز هذا الممر الصعب. لقد مر حوار الأديان على هذه الإشكالية مروراً جزئيا ولم يتصدى لها بعمق منهجي بوصفها واحدة من المرتكزات الأساسية في العلاقات الدولية، كما أن غياب الاتفاق العام على تحديد معنى معين ومستقل جعل الكثيرين(شخصيات، جمعيات، حكومات...) يبادرون إلى الدعوة لتشكيل جبهة، أو كتلة كجواب طبيعي على هذا الغياب المحدد لمكنزمات الحوار والتعايش بين الطرفين.

وعليه، ومن خلال هذه الدراسة تمكنا من الخروج ببعض الاستنتاجات نوجزها فيما يلي:

- يجب أن يكون الحوار الفكري مقدمة وقاطرة الحوار السياسي، لأن الحوار بين المفكرين إنما يمهد الطريق للحوار بين القادة والزعماء، فالفكر يسبق الفعل، والتصور يأتي قبل الممارسة. هذه ليست مثالية تعطي الأولوية للفكر على الواقع، بل إنها عين الواقعية في المجتمعات التي مازال فكرها بديلا عن واقعها، وماضيها ممتدا فوق حاضرها.
- إن التوجه الجديد التجديدي لقضية الحوار والتعايش الذي يشهده العالم اليوم، يجعلنا ندرك صعوبة التمييز بين ما هو فكري محض وما هو سياسي محض. فكثيرا ما كان الأول مدخلا للثاني في فترات سابقة(فكر ابن رشد وابن ميمون في المجتمع الأندلسي خير مثال)، أم اليوم فهو العكس، حيث بات الفكر الديني الإسلامي المستضعف يستجير بالعِلمانية وبالفاتيكان وبالدول المدنية الغربية طلبا للمقام الآمن، ولا زال ذلك الفكر الذي ينتج الإرهاب، وهذا ما يجعلنا فهم ذلك نوعا من الدفاع الغربي المسيحي على استقلاله الفكري والسياسي، بل هو إستراتيجية هيمنة الفكر الديني المسيحي بكنائسه العابرة للقارات.

- رغم كثرة مؤتمرات ولقاءات ودعوات الحوار بين الأديان والتعايش بين الشعوب، سيظل الغرب يجهلنا ثقافيا وحضاريا، ما دمنا لم نحقق مناعة وجودية لأنفسنا. فالغرب لا يبالي بالهامش، والعالم العربي الإسلامي تحديدا(الغرب المسيحي لا تعنيه الدول العربية سوى ما تقدمه من تنازلات) على هامش هذا العالم مهما أوهموه.

- إن مصطلح الحوار(بالنظرة الغربية) تكمن خطورته في حمل معاني ودلالات ولوازم تمس جوهر عقيدة الإسلام، وشريعته ونظامه، وهذا ما يفسر شيوع هذا المصطلح والزج به في لغة الإعلام والخطابات السياسية، واللقاءات الثقافية، والمؤتمرات الدولية وفق النظرة الغربية المسيحية. لأن من مقتضيات التعايش الذي ينشدونه هو تنازل المسلم عن معتقده، وذلك بالاحتكام إلى قوانين البشر(قوانينهم) ليستطيع العيش وسطهم، ويحمل هويتهم، ويتخلى أو يتساهل في وجوب الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية بحجة أن الآخر لا يقبل بها.

- إن الوطن العربي مناخ ديني رحب، فيه هبط الوحي، وعلى أرجائه تعايشت الأديان، لما بينها من صلات كالاعتراف بنبوة الأنبياء ومعجزاتهم وكتبهم، وأن النقل الإسلامي محفوظ من قبل الله تعالى، بينما نقل الأديان الأخرى دخل عليه التحريف والتزييف، لذلك أوغلت المسيحية النصرانية في الشرك، فانقطعت أسانيدها، وأضحت مسألة الحوار اليوم مسألة مركزية، تتناول لب الدين وجوهره، ولب الموروث الحضاري في تفاصيل لا يمكن حصرها في جانب دون الآخر.

ولأن الإسلام أحدث أديان التوحيد الثلاثة الذي مثل ويمثل دائما التنوع الواسع، ووحدة الرؤية الروحية، ولأنه قوة ثقافية ووجدانية تربط تقريبا خمس سكان العالم اليوم، فإن على المسلمين أن يأخذوا على عاتقهم الحفاظ على تراث الثقافات المعاصرة، وأن تكون لممارستهم السلوكية الإنسانية والحضارية تأثير على الآخر في طريقة الحياة بكل أشكالها، مثلما أخذ المسلمون الأوائل على عاتقهم الحفاظ على تراث الحضارات الكلاسيكية القديمة (الإغريقية، الرومانية،

البيزنطية، الفارسية) ولعبت منجزاتهم الإسلامية دورا رئيسا في تطوير النهضة الأوربية.

المراجع:

1- بدوي عبد الرحمن.(1980). فلسفة الدين والتربية عند كانط، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

2- البوطي محمد سعيد رمضان.(د ت). أدب الحوار، دمشق: نخو القمة للطباعة والنشر.

3-توشار خان.(2010). تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ترجمة: ناجي الدراوشة، ط1، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة.

4- التويجري عبد العزيز.(2015). الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن21، ط2، المغرب: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة(مطبعة الايسيسكو).

5- توينبي أرنولد.(2011). مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال، مصر: المركز القومي للترجمة.

6- كلمة الهيلينية جاءت من كلمة هيلا وهو الاسم العرفي الذي أطلقه اليونانيون القدماء على أنفسهم. الهيلينية تعبير عن الثقافة والحضارة اليونانية القديمة التي امتزجت روحيا بحضارات الشرق. اتصفت بالنبل والأخلاق الكريمة والرفع من قيمة الإنسان والإنسانية. ينظر: توينبي أرنولد.(2003).تاريخ الحضارة الهيلينية، ترجمة: رمزي جرجس، مراجعة:صقر خفاجة، مصر:الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6- الجوهري إسماعيل.(1990). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ج2، بيروت: دار العلم للملايين.
7- جينيبر شارل.(د ت). المسيحية- نشأتها وتطورها، ترجمة: عبد الحليم محمود، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

8- حتحوت حسان.(1998). رسالة إلى العقل العربي المسلم، ط1، القاهرة: دار المعارف.

9- ابن حزم علي.(1985). الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل.

10- الحسني الأمير عبد القادر الجزائري.(2005). المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج1، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ط1، الجزائر: دار الهدى.

11- الحصين، صالح.(د ت). العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصرة، الرياض: مؤسسة العبيكان.

12- داماسكينوس باباندريو.(2000). المسلمون والمسيحيون في المجتمع المعاصر-صورة الآخر ومعنى المواطنة، الأردن: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية(مؤسسة آل البيت).

13- ديورانت، ول.(د ت). قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود ومحمود بدران، ج4، بيروت: دار الجيل.

14- ديماس محمد راشد.(1999). فنون الحوار، الرياض: دار ابن حزم.

15- الرافعي مصطفى.(1981). حضارة العرب، ط3، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

16- رشيد رضا، محمد.(1960). الوحي المحمدي، ط6، مصر: مكتبة القاهرة.

17- الريامي، محمد.(2016)."حوار الحضارات"، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، منشورات، مج15، (ع12)، ص ص:307-323.

18- الزبيدي، مرتضى.(1994).تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، بيروت: دار الفكر.

19- الزعفراني حاييم.(2003).حوار الثقافات'الدروس المستخلصة من الحكمتين اليهودية والإسلامية في مراحل معينة من التاريخ'، ترجمة:سعيد كفايتي، الرباط: مطبعة المرصم.

20- أبو زهرة محمد.(1984). محاضرات في النصرانية، ط4، الرياض: الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

21- زياكاس، جريجوريوس.(1998). نظرة المسيحي إلى المسلم- الأسس والواقع المعاصر، الأردن: مؤسسة آل البيت.

22- الطبري، محمد.(1966). تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ج4، مصر: دار المعارف.

23- الطويل توفيق.(1991). قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، القاهرة: طبعة دار الزهراء للإعلام العربي.

24- عبد العاطي شعبان. حامد حسين، أحمد وآخرون.(2004). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

24- عبد العزيز، زينب.(1995). تنصير العالم- مناقشة لخطاب البابا بوحنا بولس الثاني، ط1، القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر.

25- قنديل عبد الرزاق، أحمد.(1984). الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي، القاهرة: دار التراث.

26- المجيدلي شمت، عبد الله.(2015). تطور الفكر الفلسفي من الفلسفة اليونانية إلى المعاصرة، ط1، الأردن: دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع.

27- مرابط، جواد.(2007). الأمير عبد القادر والتصوف، الجزائر: طبعة وزارة الثقافة.

28- المقراني، عدنان.(2008). نقد الأديان عند ابن حزم الأندلسي، ط1، نيويورك: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

29- منظور، محمد.(1955). لسان العرب، ط1، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

30-Bouyerdene, Ahmed. (2011). L'émir Abdelkader à Pau : exemples d'un dialogue religieux au XIX siècles, studia Islamica, serie2, vol106, pp : 125-154.

31- Emmanuel, Kant. (2015). La religion dans les limites de la simple raison, Paris : édit, Laurent Gallois, p186.

32- Ernest. Renan. (1997). Averroès et l'averroïsme, Paris, Maisonneuve larose, p : 18.

33- Provençal, Levi. (1932).l'Espagne musulmane au Xème siècle, Paris : Institutions et vie sociale, Larose, pp : 37-39.

للإحالة على هذا المقال:

-بكاري عبد القادر، (2022)، « **التعايش بين الشعوب والحوار بين الأديان - حتمية الماضي وضرورة الحاضر**-». **المواقف**، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 1049- 1076.